مع ميخائيل نعيمه

في « همس الجفون »

للأستاذ مناور عويس

« أيها اللابسون عرى الشتاء كيف تدفأون ؟ .
أيها الكارعون ري المطاش كيف تنقعون ؟
أيها الآكلون خبز الجياع كيف تشبعون ؟ .
أيها الراضعون ثدي الشكالى كيف تمنعون ؟ . .
أيها السائقون ظعن المنايا كيف تهزجون ؟ . .
أيها المتحمون بالدم الحمى كيف تطهرون ؟ . .
أيها المدلجون ، إذ يقبل الفجر ، أين تدبرون ؟ . .
أيها البائعون لحم الأفاعي هل سوى السم تربحون ؟! »

رأيتني إذا عددت الشعراء الذين أفزع إليهم كلما حزبني أمر وضقت بالحياة والأحياء أعد نعيمه في طليعة أولئك الشعراء فما أكثر ما اردد قوله :

إذا سماؤك يوماً تحجبت بالغيوم
أغمض جفونك تبصر خلف الغيوم نجوم
والأرض حولك إمّا توشحت بالثلوج
أغمض جفونك تبصر تحت الثلوج مروج!

وإن بليت بداء ـ وقيل داء عياء
أغمض جفونك تبصر في الداء كل الدواء !.

وعندما الموت يدنو واللحد يفغر فاه
أغمض جفونك تبصر في اللحد مهد الحياة !

فما رددت هذه الأبيات إلا شعرت بأن المرارة التي كنت أغص بها قد خف وقعها وانقشعت عن سماء نفسي تلك السحب الدكناء وصفرت في عيني هموي وآلامي؛ فنعيمه من هذه الناحية طبيب أرواح وقلوب قبل أن يكون شاعراً !

فهو يدخل القلوب بمقاقيره الروحية دون استئذان ، وببساطة فائقة يمتلك تلك القلوب التي أثقلتها هموم العيش وآدها ثقل السنين ويصبح فيها السيد المطاع ، فلا يلبث أن يغسلها بزيته المقدس وينقيها مما علق بها من أوضار ورسب في قاعها من أقذار حتى تراها تعيش في عالم نعيمه الروحاني الذي يشيع فيه الحب والخير والجمال ، فنعيمه يقوم بمهمات ثلاث : مهمة الكاهن ، ومهمة الفيلسوف ، ومهمة الشاعر ! ..

ليقل الناس ما شاءوا فلست أؤمن إلا بوجداني ولست أفهم الحياة والفن إلا به وعلى ضوئه ، وقد هداني وجداني إلى حقيقة لا أتزحزح عنها قيد شعرة وهي أن نعيمه فيه نبوة ، ولكنها من نوع جديد ، وآثاره الأدبية هي (امتداد) لأنبياء العهد القديم ، أما الذين لا يرون إلا ما سطر على القرطاس فلم يكتب لهم هذا الكلام . وما دامت الفنون تقاس بمقدار ما تتصل بالنفوس ، والأدب أحد تلك الفنون - ولعله أسماها جميعاً — فنعيمه من أشد الشعراء اتصالا بالنفوس وأعلقهم بالأرواح ... إنه من أولئك الشعراء والكتاب الذين يرتفعون بالإنسان إلى آفاق الروح الكلي ويمتزجون به امتزاج الليل بالنهار والروح بالجسد ، فما قرأته مرة إلا أحسست بأنني أقرب ما أكون إلى الله وأبعد ما أكون عن (التراب) !

وهذا لعمري هو الفرق بين أدب السماء وأدب الغرائز والأحقاد . إن من ينعم النظر في شعر نعيمه ونثره يجد أنه يهدف إلى غاية هي غاية الغايات ، أي نشر المحبة والخير والسلام بين الناس ، تلك المحجة التي طالما سعى إليها الأنبياء والشعراء والفلاسفة منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا ، وسوف يظلون يسعون إليها ما دام الإنسان إنساناً ، وما دامت الأرض أرضاً ، وفي سعيهم المتواصل هذا سعادتهم وسعادة البشرية ، فالسعي إلى الكمال تطور وتجديد أما الكمال فوقوف وجمود كما يقول عبقري ألمانيا الأعظم «جيتي»

ليست شاعرية نعيمه من تلك الشاعريات التي تعتمد على بلاغة الألفاظ ورنين القوافي وإنما هي شاعرية مجنحة تحلق بين الأرض والسماء ، قوامها الروح ولحمتها وسداها الأفكار السامية والتأملات العميقة . في شعر نعيمه صوفية حالمة وحيرة وتساؤل وشك وإيمان ، فيه ثورة وتمرد واستسلام ، فيه امتزاج بالكون ، فيه صلوات وابتهالات تحمل في تضاعيفها النور والطمأنينة ، في شعر نعيمه هيمنة النسيم وأنداء الربيع ! ...

***

عندما نشبت الحرب العالمية الأولى حمل نعيمه البندقية في

جيش الولايات المتحدة فرأى بعينيه أشلاء إخوانه كيف تمزقها القنابل، كما سمع بأذنيه أنين الجرحى وصراخهم الذى يصم الآذان من ظلم الإنسان ووحشيته فانطبع فى نفسه كره شديد للقوة الغاشمة والأقوياء الظالمين ، وانتهت الحرب بانتصار الحلفاء على أعدائهم ، ولكن الجماعة فى سوريا ولبنان كانت تفتك بالألوف من أبناء وطنه فزفر نعيمه هذه الزفرة الحارة وأرسلها صرخة مدوية خالدة :

أخى ، إن ضج بعد الحرب غربى بأعماله
وقدس ذكر من ماتوا وعظم بطش أبطاله
فلا تهزج لمن سادوا ، ولا تشمت بمن دانا
بل اركع صامتاً مثلى
بقلب خاشع دام
لنبكى حظ موتانا !

أخى ، من نحن ؟ لا وطن ولا أهل ولا جار
إذا نمنا ، إذا قمنا ، ردانا الخزى والعارُ
لقد خت بنا الدنيا ، كما خت بموتانا ! . . .
فهات الرفش واتبعنى
لنحفر خندقاً آخر
نوارى فيه أحياناً !! - الخ . .

هذا هو نعيمه الثائر الذى يريد أن يؤجج النار فى الجليد ! هذا هو نعيمه الإنسان الناقم الساخط على ظلم الإنسان لأخيه الإنسان . .

ولنصغ الآن إلى نعيمه الفيلسوف يفتش عن نفسه فى الموج الذى يثور والبحر الذى يبكى عند أقدام الصخور ، وفى الرعد الذى يدوى بين طيات الغمام والبرق الذى يفرى سيفه جيش الظلام ، وفى الريح التى تذرى الثلج عن رؤوس الجبال وفى الفجر الذى يمشى خلسة بين النجوم !

إن رأيت البحر يطغى الموج فيه ويثور ،
أو سمعت البحر يبكى عند أقدام الصخور
ترقبى الموج إلى أن يحبس الموج هديره
وتناجى البحر حتى يسمع البحر زفيره
راجياً منك إليه
هل من الأمواج جئت ؟!
إن رأيت الفجر يمشى خلسة بين النجوم
ويوشى جبهة الليل المولى بالرسوم
يسمع الفجر ابتهالا ، صاعداً منك إليه
وتحرى كنبى هبط الوحى عليه
هل من الفجر انبعثت ؟!

حقاً إن نعيمه فى قصيدته « من أنت يا نفسى » التى شوهت جمالها وفرقت وحدتها باختيارى هذين المقطعين منها لمن أبدع الشعراء تصويراً وأبرعهم تلويناً للفكرة الواحدة . فمن منا لم يحس بنفسه تحاول التفلت والانطلاق ، وتحن إلى الامتزاج بمظاهر الكون ؟ إلا إننى لا أعرف شاعراً كنعيمه استطاع أن يصور لنا تلك الارتعاشات التى تهيمن على النفس الإنسانية أمام هدير الأمواج وقصف الرعود ولمع البروق وأنين الرياح وانبثاق الصبح وغناء البلبل .

لقد بلغ نعيمه فى هذه القصيدة درجة الإعجاز الفنى لأنه شاعر فيض وإلهام لا شاعر قريحة ونحت ألفاظ . انظر كيف يلخص قصيدته بهذا المقطع الرائع :

إيه نفسى ! أنت لحن فىّ قد رنّ صداه
وقمتك يدُ فنان خفى لا أراه
أنت ريحٌ ونسيمٌ ، أنتِ موج أنت بحرُ
أنت برق ، أنت رعدٌ ، أنت ليلٌ ، أنتِ فجرُ
أنتِ فيضٌ من إله !

وهنا لابد لى من تسجيل هذه الخاطرة فى شعر نعيمه ، وهى أن شعر نعيمه من ذلك النوع الذى لا يرهق العقل ولا يكده — على ما فيه من عميق الفكر وسامى الخيال — بل يفيض على القلب طمأنينة ويشيع فى النفس راحة ويقوى من أجنحة الخيال ويبسط على الروح جواً سحرياً فيه متعة وفيه إخلاد إلى التأملات والاشراقات الروحية التى تقرب الإنسان من خالقه وتبعده عن دنيا الأطماع والسفاسف والشهوات ، ولعمرى تلك مزية شعر الأمم والأجيال ! . .

* * *

قال نعيمه : « إذا سئلتم من أبدع آيات الفن وأغلاها قولوا : ضمير لا يسخر وجبين لا يعفر ولسان حليم شكور ، وقلب عفيف

غفور ، وعين لا تبصر القذى ويد لا تنزل الأذى وفكر يرى فى البلية عطية وخيال يربط الأزلية بالأبدية » ولوطبق هذا الدستور الذى استنه نعيمه للفن الرائع لكان أدبه فى طليعة الآداب التى ينطبق عليها هذا الدستور .

ولننتقل الآن إلى نعيمه المتصوف مبتهلا إلى ربه ، فى ابتهالاته دليل ناصع على انسانيته الشاملة وإيمانه الراسخ بوحدانية الحياة والوجود :

كحل اللهم عينى بشعاع من ضياك — كى تراك
فى جميع الخلق ، فى دور القبور ،
فى نور الجو فى موج البحار
فى قروح البرص فى وجه السليم
فى يد القاتل فى نجع القتيل
فى سرير العرس فى نعش العظيم
فى يد المحسن فى كف البخيل
فى قذى العاهر فى طهر البتول . . . .
وإذا ما ساورتها سكتة النوم العميق
فاغمض اللهم جفنيها إلى أن تستفيق . . .
وافتح اللهم أذنى كى تعى دوماً نداك - من علاك
فى ثغاء الشاة ، فى زأر الأسود ،
فى نعيق البوم فى نوح الحمام . . .
فى خرير الماء فى قصف الرعود . . . .
فى هدير البحر فى مر الغمام . .
فى صراخ الليل فى همس الصباح
فى بكا الأطفال فى ضحك الكهول .
فى ابتهالات المراة الجائعين . . . .
فى انتخاب الناى فى دق الطبول . .
فى صلاة الملك والعبد السجين . .
وإذا ما قرب الموت روافاها الصمم .
فأختمن ربى عليها ريثما تحيا الرمم .
واجعل اللهم قلبى واحة — يستقى منها القريب — والغريب!
ماؤها الإيمان أما غرسها . . .

فالرجا والحب والصبر الطويل ! . . .

إلى آخر تلك الابتهالات التى نستكشف من بين ثناياها فلسفة نعيمه الانسانية ، المؤمنة الموحدة ، ونطل من خلال مقاطعها على ذلك العالم الروحانى الذى يعبق منه أرج (بوذا) ونفحات (لاوتسو) ...

* * *

وهلم بنا الآن إلى (أوراق الخريف) ...

قل أن تجتمع الفلسفة والشعر صعيد واحد ، ذلك لأن نبعة الشعر الوجدان ، ونبعة الفلسفة العقل ، وإذا استطاع الشاعر أن يراوج بين الشعر والفلسفة كما فعل أبو العلاء المعرى (وجيبى) وغيرهما مما عمقت ثقافتهم وتسامت أرواحهم واتسعت آفاق وحيهم ودقت ملاحظتهم لبواطن الحياة وظواهرها ، أقول إذا استطاع الشاعر أن يجمع بين الشعر والفلسفة فهو الشاعر الخالد الذى لا يجوز لأمة أن تدعيه لنفسها دون أمة أخرى لأنه شاعر كل مكان وزمان . ونعيمه — فى اعتقادى — أحد أولئك الشعراء وأن كره عشاق (موزاييك) الألفاظ وعباد الطنين والرنين والقوافى الجوفاء ! .

فى المقطعين الأولين من (أوراق الخريف) نرى نعيمه شاعرا يؤلمه ويشجيه أن يشاهد تلك الأوراق المصفرة التى لوت أعناقها وباح الخريف وذرتها فى الفضاء . .

إننى لأكاد ألمح دمعة التفجع فى عينيه وهو ينظر إلى تلك الوريقات تتساقط الواحدة تلو الأخرى ناظرات إلى رفيقاتهن اللواتى ما برحن خضراً على غصنهن بأعينهن الدامعة وقلوبهن الواجفة لهول الفراق الذى لا لقاء بعده ولرهبة المصير الذى لا رجعة منه !

هذان المقطعان هما من رائع الشعر لأنهما غاية فى البساطة والصدق والإحساس فضلا عن الموسيقى المترقرقة بين السطور وفضلا عن المعانى الإنسانية والأحاسيس المختلفة التى توحيها الأبيات للقارىء أو السامع ...

(يتبع)

صابر عويس